علم الاخلاق لارسطوطاليس

لقد كان من نصيبنا ان شهدنا تدرُّج الارتقاء الادبي في هذا القطر كأننا في مشهد كبير وجماعة العلماء والادباء يمرون امامنا بما ترجموهُ والفوهُ وحرروهُ كتباً ورسائل ومقالات فاذا هي مثل هرم كبير رأسهُ في الحضيض وقاعدتهُ في الاوج واسعة متينة تتناول كل موضوع نظري وعملي من اعلى مذاهب الفلسفة الى ما يختص بزرع الحبوب وتربية المواشي

اليك مواضيع ثلاثة كتب اهديت الينا في يوم واحد الاول في علم الاخلاق والثاني في علم الاجتماع والثالث في بلاغة العرب في الاندلس . اما الكتاب الاول وهو موضوع هذه المقالة فمن اوضاع المعلم الاول ارسطوطاليس اكبر فلاسفة اليونان بل اكبر فلاسفة الامم قاطبة وقد نقلهُ الى العربية عالم مشهور وفيلسوف متبحر الاستاذ احمد لطفي السيد مدير دار الكتب المصرية عن ترجمة بارتلمي سنتهلير من اليونانية . وهو جزآن كبيران لان سانتهلير لم يكتفِ بالترجمة بل علّق على الكتاب حواشي كثيرة وصدَّرهُ بمقدمة ممتعة في علم الاخلاق وتدرجهِ ملأت في الترجمة العربية ١٦٦ صفحة فهي كتاب قيم قائم برأسهِ

ومترجمنا العربي ترجم هذا الكتاب شغفاً بهِ فانهُ يحب الفلسفة حبًّا جمًّا ويعتقد انها لازمة لارتقائنا اشد اللزوم ولاسيما فلسفة ارسطوطاليس وقد اعرب عن ذلك بتمهيد او تصدير صدَّر بهِ هذه الترجمة نقتطف منهُ الفقرات التالية لانها تصف فلسفة ارسطو طاليس احسن وصف وتبين حاجتنا اليها وصلاحيتها لنا قال

« لما اتجهت الميول العامَّة الى ادخال التعاليم الفلسفية في مدارسنا ومعاهدنا الدينية فكَّرتُ في اي مذاهب الفلسفة يمكن الابتداء بهِ بحيث لا يصادم العقائد القومية ولا ينافر التعاليم الدينية فظننت ان اولى مذاهب الفلسفة بالقبول عندنا الآن واسرعها تمثلاً في الافهام وابعدها عن التضاد الصريح المألوف من منازعنا واراسخ من عقائدنا فلسفة ارسطوطاليس . وماكان المعلم الاول جديداً في معاهدنا الدينية بل ذكرهُ مألوف عند طلبة المنطق خصوصاً الطلبة الذين يوسعون معارفهم بقراءة رسائل الفارابي وبعض مختصرات ابن رشد

«ولقد قوبلت فلسفة ارسطو عند السلف بصدر رحب واشتغل بها الخلفاء واهل النظر من علماء المسلمين في الشرق وفي الغرب واصبحوا خلفاء ارسطو وممثلي مذهب المشائين وتألف بذلك من مجموع بحوثهم في الشرق والغرب ما يسمى الفلسفة العربية

«وهذه الفلسفة العربية قد انتشرت في مصر وفي جميع الاقطار الاسلامية حتى صبغت بصبغتها علم الكلام وافاضت انماطها على العلوم الدينية الاخرى وهانحن أولاء مهما رثّت عرى الاتصال بين معلوماتنا الحديثة وبين الفلسفة العربية مباشرة فاننا لا نزال نفكر من حيث لا نشعر على طريقة الفلسفة العربية ولا نزال نرى آثارها ظاهرة جد الظهور في دواوين شعرائنا وكتب كتابنا وآثار علمائنا او على جملة من القول في تلك المجموعة التي تؤلف نهضتنا الادبية الحاضرة

«اذا شئنا ان تكون لنا فلسفة مصرية تأتلف ومعلوماتنا وجب علينا ان نجدد الفلسفة العربية التي فقدت اعيانها ولم تبقَ الا آثارها . او بطريقة اقرب ان ندرس فلسفة ارسطوطاليس فان الفلسفة العربية هي في مجموعها فلسفة ارسطوطاليس »

ثم شرح كيف نقلت فلسفة ارسطو الى العربية فقال ما خلاصتهُ :— في الجاهلية كان الاراميون هم العنصر السائد في الشرق من بين عناصر العائلة السامية . وقد كانوا منذ اواسط القرن الثاني بعد الميلاد الى ما بعد الفتح الاسلامي يتعاطون العلوم اليونانية ويترجمونها الى لغتهم السريانية وعلى الخصوص فلسفة ارسطوطاليس فلما فتح العرب العراق والجزيرة ورثوا من الاراميين شيئاً من معلوماتهم ولكن العنصر العربي مكث قليل الميل الى الفلسفة الى ان جاءت الدولة العباسية وانتقلت عاصمة الخلافة الى العراق وتدخل العنصر العجمي في الدولة فظهر الميل الى الفلسفة واضحاً وامر ابو جعفر المنصور بترجمة الكتب اليونانية . واشتدَّت الحركة الفلسفية في زمن المأمون ومن بعدهُ في الشرق ثم في زمن الحكم المستنصر بالله وبعض الخلفاء وملوك الطوائف في اسبانيا ومع ان نفس كتب الفلسفة لم يكن مقصوراً على كتب ارسطو فان فلسفة ارسطو هي التي غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها والواقع ان الفلسفة العربية ليست شيئاً آخر غير فلسفة ارسطوطاليس طبعت بالطابع العربي وسميت الفلسفة العربية وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين متينة الى حد ان الجامعات الاوربية في العصور الاخيرة من القرون الوسطى كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار انها فلسفة المشائين اي فلسفة ارسطو

وما قالهُ الاستاذ يؤيدهُ الكتّاب الاوربيون الباحثون في الفلسفة العربية قال الفيلسوف الانكليزي وليم ولس استاذ الفلسفة الاوربية في اكسفرد « ان ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيهِ من العربية سوى الاسم واللغة فانهُ فكر يوناني منظم عُبِّر عنهُ بلغة سامية وحُوِّر بالمؤثرات الشرقية وادخل بين اهل الاسلام بمؤازرة الواسعي الصدر من خلفائهم وبقي حيًّا بغيرة جماعة من المفكرين الذين لم يخشوا من المجاهرة بارائهم على ان امتهم اساءت بهم الظن واضطهدتهم. ولهم الشأن الاكبر لدى مؤرخي العلوم النظرية لانهم احلّوا فلسفة اليونان ارفع محل بعد ان نفيت من البلاد التي نشأت فيها وحينما كانت اوربا الغربية اجهل من ان تصلح وطناً لها »

ثم ذكر الاستاذ المترجم ما يراهُ سبباً لرجوعنا الى فلسفة أرسطو فقال « وكما ان النهضة الاوربية الحديثة عمدت الى درس فلسفة ارسطو على نصوصها الاصلية فكانت مفتاحاً للتفكير العصري الذي اخرج كثيراً من المواهب الفلسفية الحديثة فلا جرم ان نتخذ نحن فلسفة ارسطو لاسيما انها اشد المذاهب ائتلافاً مع مألوفاتنا والطريق الاقرب الى نقل العلم الى بلادنا وتأقلمهِ فيها رجاء أن ينتج في النهضة الشرقية مثل ما انتج في النهضة الغربية » وتلا يظن انهُ اشار بالرجوع الى فلسفة ارسطو لضرورة اقتضتها الحال لا لمزية في هذه الفلسفة نفسها قال « ان فلسفة المعلم الاول خالدة ما حدَّها وطن ولا اخفى عليها زمن فقد بقت على كل مدنية صروح مجدها العلمي حتى مدنيتنا الحديثة »

ثم شرح ذلك شرحاً مسهباً واصفاً فلسفة ارسطو وذاكراً آراء اكبر العلماء والفلاسفة فيها وقال « لقد جئت عمداً الى الاستدلال بآراء بعض اساطين النهضة الحالية من اعمقهم الحاداً الى اشدهم تديناً ومن الفيلسوف الوضعي الى الشاعر الاديب ليرى الذين فتنتهم النهضة الحديثة ان الابتداء بدرس فلسفة ارسطوطاليس الموحّد لا يفوّت عليهم شيئاً كثيراً ولا يعتبر كما قد قيل ضياعاً للوقت بل هو على ضد ذلك اقرب طريق . وعلى هذه الاعتبارات التي قدمناها والتي يسمح لنا المقام في هذا التصدير بالتبسط فيها نرجح كثيراً ان الطريق القريب والامين والخالي من العقبات الى تمكين الفلسفة من بيئاتنا العلمية لتنتج في الذكاء المصري قوى الكشف عن اسرار الطبيعة والاختراعات المتنوعة وصحة الحكم على الاشياء هو اتخاذ فلسفة يجتمع فيها التوحيد وبناء العلم على المشاهدة في آن واحد او بعبارة اخرى فلسفة ارسطوطاليس . ولذلك

اعتزمت ان انقل الى العربية اهم اجزائها فنقلت « الكون والفساد » ولكنني ارتئيت ان ابدأ بنشر الاجتماعيات فانها اسهل تناولاً واعجل فائدة »

وجاء على ذكر الذين ترجموا كتب ارسطوطاليس الى العربية ابن المقفع وحنين ابن اسحق وتلميذاهُ اسحق ابنهُ وحبيش ابن اخته . وابو بشر متى ابن يونس ويحيى ابن عدي وابو علي عيسى بن زرعه وابن ناعمة ويعقوب بن اسحق الكندي وابو نصر الفارابي. وذكر المشتغلين بفلسفة ارسطوطاليس من علماء الاندلس كالاقليدي وابن خلدون الحضري وابن باجة وابن الطفيل وابن رشد . ثم قال «وبعد ابن رشد اضمحلت الفلسفة وكانها كانت وديعة عند العرب استودعوها حين لم يكن غيرهم من الامم قادراً على حمل امانتها ثم ادوها الى اوربا حين انقطت بها اسباب البقاء في الاقطار العربية »

ثم استطرد الى سيرة ارسطوطاليس وما تعلمهُ من استاذهِ افلاطون واستاذها سقراط وما وافقهما او خالفهما فيهِ وما حلّ بفلاسفة العرب من البأساء الى ان تناسى ظلّ الفلسفة من المشرق ومن اسبانيا ايضاً واشرقت شمسها في ربوع اوربا

وقد ملأ هذا البحث من ذكر مؤلفات ارسطوطاليس ونقلها الى العربية واشتغال فلاسفة العرب بها ٤٤ صفحة كبيرة مفعمة بالفوائد وهي وحدها حرية بان تنشر في كتاب على حدة. واذا لم يكن للاستاذ الاّ هذا التصدير فحسبهُ فخراً في جمعهِ ونشرهِ فانهُ في مجموعهِ من ابلغ ما وقع عليهِ نظرنا في هذا العصر. ولا ندري كيف يرضى طالب علم ان لا يكون هذا الكتاب النفيس كتاب علم الاخلاق بين كتبهِ وفيهِ مثل تصدير المعرب ومقدمة سنتهلير . اما علم الاخلاق نفسهُ فقد قال ان حنين ابن اسحق نقلهُ الى العربية افلا توجد نسخة منهُ الآن وان توجد وهل تنطبق على هذه الترجمة فاننا لم نتنبه الى ان الاستاذ الفاضل اشار اليها الاّ في التصدير

والكتاب مصدر بصورة تمثال ارسطوطاليس المحفوظ في رومية في سراي اسبادا وهو جزآن فيهما عشرة كتب الاول في نظرية الخير والسعادة والثاني لنظرية الفضيلة والثالث في الشجاعة والاعتدال والرابع في تحليل الفضائل المختلفة والخامس في نظرية العدل والسادس في نظرية الفضائل العقلية والسابع في نظرية عدم الاعتدال واللذة والثامن في نظرية الصداقة والتاسع في الصداقة ايضاً والعاشر في اللذة وفي السعادة الحقة